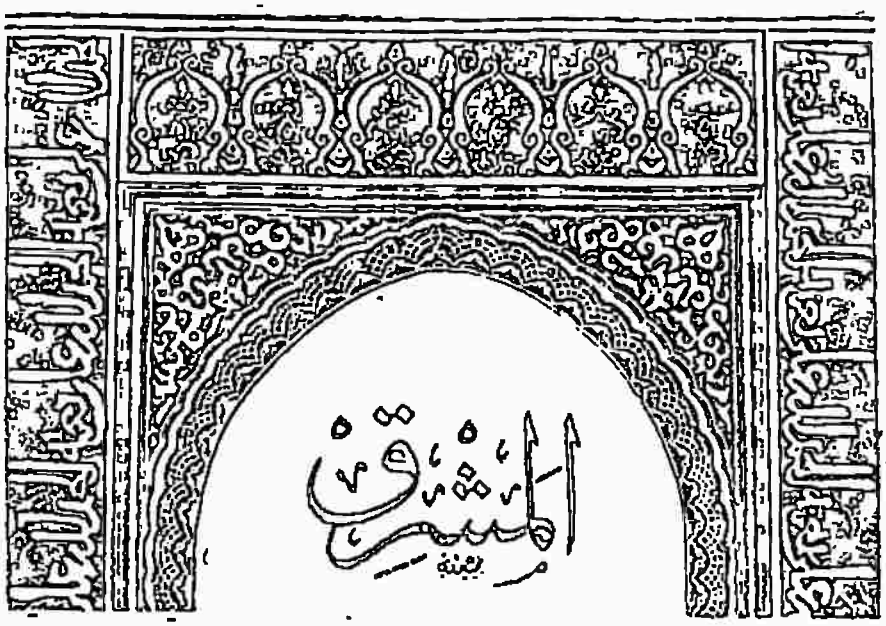

السنة السادسة والثلاثون

ك ٢ – اذار ١٩٣٨

الحجارة المؤلّهة

وعبادتها عند العرب الجاهليين

من آثار المرحوم الاب هنري لامنس

اذا درسنا مظاهر العبادات ، قبل الاسلام ، في بلاد العرب ، ولا سيما في منطقة الحجاز وما يجاورها من انحاء نجد ، في تلك المنطقة التي اصبحت « مهد الاسلام » فنالت من اهتمامنا القسط الأوفر ؛ اذا درسنا مظاهر العبادات نجدها تكنّ ، وراء تنوّعاتها المحلّية ، صفةً شاملة هي التزوع الى تكريم الحجارة المؤلّهة ، تكريماً لا يختصّ بقبيلة ، ولا ينفرد به بلد. وهذا القرآن والشعر القديم شاهدان على انتشار الأنصاب في انحاء الجزيرة . وهل يمكن ان نردّ تأييدَ هذا الانتشار الى شهرة المبدَين القُرَشيَّين ، الصفا والمروة — وكلاهما من اسماء الحجارة ![1] — فنزعم انّهما عملا على ايهام الرواة

١) الطب ابن دريد : الاشتقاق ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٠ ؛ ابن الاثير : أسد الغابة ٣ : ٣٥ (قابل باسم العلم : عبد الحجر) ؛ الطبري : التفسير ٢ : ٣٥

وجماع الاحاديث الاسلامية بان عبادة الحجارة كانت عامة في بلاد العرب ؟ ومهما يكن من أمر فان أثريي العرب القدماء ، والمانين بشؤون الديانات من مؤرخيهم ، أولوا مثل هذين الاسمين ، وفهموا مثل هذه المعلومات على طريقة ظاهرية بحتة[1] ، جارين في ذلك على مزاعمهم التقليدية في شمول عبادة الكعبة ، وتفوق قريش حتى في ايام الجاهلية[2] . فاخذوا يزعمون ان كل الحجارة التي تكرمها القبائل مأخوذة في اصلها من الحرم المكي ؛ على حدّ ما روى ابن هشام عن ابن اسحق ، فقال : « ويزعمون ان اول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حيثما ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد ، الا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة . حتى سلخ ذلك بهم الى ان كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة واعجبهم .»[3]

وقد رأينا ان ندرس ، في الصفحات التالية ، بعض مظاهر العبادة ، والمؤسسات الدينية عند العرب الجاهليين مهتمين خاصةً بما أهمل درسه حتى اليوم من تأثير الطواف الطقسي في عبادة الحجارة المؤلهة .

١

« تنتقل القبائل البدوية ، ولكن لا ينتقل موضوع عبادتها . فان الحجارة لا تُحمل مع الظعن ، كما كانت الحال في مظلّة يَهْوه[4] . »

هذا حكم ولهوسن بعبارته الموجزة الجازمة ، وبما يميّز اسلوبه من رغبة دائمة في التفتيش عن الأشباه في الكتاب المقدّس[5] . ونحن لا ننكر ان كتابه افضل

---

١) ابن هشام : السيرة ، ٥١ ؛ الازرقي ٧٣ ؛ الدارمي : السُّنن (مخطوطة ليدن) ص ٢ (وجه) ؛ ابن دريد : الكتاب المذكور ٧٦ وفيها : « اذا وجد حجرًا احسن من حجر اخذه وعبده » ؛ و٢٢٦ وفيها ذكر سيّد اسمه «ذو الرَّوَّة» قد يكون كاهنًا (؟) ؛ السيرة الحلبية ١ : ١٦٧ ؛ اسد الغابة ٣ : ٢٣٥ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء ٢ : ٢٧٣ .

٢) اطلب كتابنا ... *Yazid*, p. 38 ٣) ابن هشام : السيرة ، ٥١

٤) يَهْوه : اي « الذي هو » ، اسم الله أوحى به تعالى الى موسى في سفر الخروج

٥) Wellhausen, *Reste arabischen Heidentums*², p. 102

ما لدينا من بحث في الشرك الجاهلي . على ان احكامه المطلقة الحاسمة قد تكون بحاجة الى شيء من التحفّظ والاحتياط . وسنعرض لمناقشة واحدٍ منها ، كما سبق لنا فناقشنا بعض قراراته في « الاحابيش »[1] وفي « نصارى مكة »[2].

قد يمكن الدفاع عن حكم ولهوسن في الحجارة المؤلّهة ، اذا ما حصرنا درسنا في العهد الاخير من الشرك الجاهلي ، وقد وصل الى اقرب حالاته الينا ، اي الى ما قبل الهجرة بقليل . بيد اننا نرى ، في هذا العصر نفسه ، شواهد على نقبل هذه الحجارة المكرّمة . من ذلك شهادة ابن سعد بشأن الحجر الأسود الذي « انزلته قريش من ابي قُبَيس قبيل الإسلام باربع سنين . »[3] وليس لنا ان نناقش قيمة هذا القول ، ولا ان نقابل بينه وبين ما تورده «سيَر» الرسول جماء من ان محمّدًا اعاد الحجر الأسود نفسه الى ركن الكعبة ، وقد تمّ ترميمها . على ان ما يهمّنا من الحادث هو ان المؤرّخين ، اذا ما عرضوا لهذا الموضوع في العصر الجاهلي المتأخر ، ولا سيما في العصور التي تقدّمته ، يميّزون بسهولة ، في القول عن الحجارة المؤلّهة او تلك الاصنام التي تمثل المعبودات الجاهلية : الحجارةَ المحمولة او المنقولة ، والحجارة الثابتة . وهذه الحجارة الاخيرة وحدها كانت مركوزة لا تتزحزح من محالّها . وقد تكون منها المعابد الخاصة بالحجاز ، ولا سيّما معبد مكة . هذا ما قد يظهر من درس تلك الوثائق المتراكمة المضطربة التي جمعها منظّمو « السيرة » الرسمية[4].

اما الحجارة من النوع الأول ، فيجب على الباحث ان يقرأ بسرعة غريبة ، وسهو عجيب « ايامَ العرب » القدماء ، واخبارَ « المغازي » النبوية ، ليُنكر انها كانت تنتقل مع القبائل من منزل الى منزل ، ولا سيّما في تنقّلاتها الحربية

١) راجع : الاحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة ، في « المشرق » (٣٦ [١٩٣٦] ١-٢٣ ، ٥٢٧-٥٥٥) .

٢) راجع : النصارى في مكة قبيل الهجرة ، في « المشرق » (٣٥ [١٩٣٧] ٦٦-٩٧ ، ٢٦٤-٢٨٧) .

٣) ابن سعد : الطبقات ١ : ١٢٠

٤) وقد يبدو في بعض اقسامها تجاهل بأمر هذه الحجارة المؤلّهة ، الّا في ما خصّ «الحجر الأسود» وسعد الصفا ومَرْوَة

وحركاتها العسكرية . وهذا خبر وقعة أُحد ، وقد أنزلته «السيرة» على الرحب والسعة ، يظهر لنا ابا سفيان «يحمل اللات والعُزّى».[1] ولا يخفى ان ابا سفيان يبدو ، في هذه المجموعة ، سيّد مكة المطاع «وقائد الناس»[2] ، بل «ربّ تهامة».[3] وهكذا يوليه المحدّث او الراوي اعمال السيّد المدنية والدينية ، تلك الأعمال التي اختصّ بها في القبائل العربية الكبرى مَن جمعوا بين صفة الربّ ، او السيّد ، وصفة الكاهن. وقد اخذ راوي الموقعة بهذه الصفة المزدوجة في شخصية ابي سفيان حتى انه في آخر ذاك اليوم المشؤوم على المسلمين ، يعود فيلتجئ الى وجود تلك الرموز الدينية — اي الحجرين المقدّسين — في حوزة ابي سفيان ، اذ يجعله يُصيح مخاطباً اصحاب النبي :

ألا ! لنا العُزّى ، ولا عُزّى لكم ! [4]

ولعلّ من المفيد ان ندرس الاسبقية بين روايتي هذا الحادث ، وعلاقتها الواحدة بالاخرى. ولكننا نخشى ان نوليها اكثر مما يستحق الحادث من اهمية[5]. فنكتفي بالقول ان الحديث حفظ ذكر وجود الحجارة المنقولة حتى في ما بعد الهجرة بقليل.

وليس المثل الذي ذكرناه بالوحيد من نوعه . فان اخبار الطائف الجاهلية تطلعنا على وجود «اللات» في احدى المعارك المهمّة من حرب الفِجار . وهناك خباء او «بيت» نُصب قبل المعركة ليكون محلًّا ، على ما يظهر ، لإلاهة

١) الطبري : ١ : ١٣١٥ ؛ الاغاني ١٤ : ١٥ ، ٢١ . والحادث ، مأخوذ عن «سيرة» ابن اسحق ، واذًا فهو يرقى الى اقدم المصادر

٢) ابن هشام : السيرة ٥٥٧ ، في شأن أُحُد : وقابل بما في ص ٦٧٠

٣) قابل بما ورد عن «كاهن سيّد اهل تهامة» ابن دريد : الاشتقاق ٢٧٦ . وسنعود الى ذكر الجمع بين رُتبتَي السيّد والكاهن

٤) الطبري ١ : ١٤١٨ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ٢١٦ — معنى «العُزّى» القويّة ، القادرة ، كما لا يخفى. وقد يكون هذا السبب في ذكرها هنا منفردةً . وهي تجمع عادةً مع اللات ، بل تتقدّمها اللات في الأيمان.

٥) أو ترى ولهوسن سها عن هذا الحادث . ام انه يوليه ثقةً اقلّ مما يولي اسطورة ذبح عبد المطّلب ، وقد اكتشف فيها تفوّق مُبَل على سائر المعبودات القُرشيّة ؟ وسنعود الى هذا البحث

الطائف ، او « ربّة الطائف» . وكان « مدار » الحباء يمثل حدّ حرَم منيع لا يمكن خرقه ، فيظلّ ملاذًا امينًا للاجئين[1] . وهذا ما اشار اليه احد الشعراء المعاصرين ، ضرار بن الخطّاب الفهري ، ذاكرًا انكسار الثقفيين ، وفرارهم مضطربين لائذين بحمى حجرهم المؤلّه ، فقال :

وفرّت ثقيفٌ الى لاتهـا بمنقلب الخائب الخاسر[2]

ولقد كان من الممكن ان نستنتج من البيت السابق ان المقصود معبدٌ للّات مبنيّ في المدينة ، لو لم نكن مطّلعين على تفاصيل «اليوم» او المعركة[3] ، عارفين بان اهل ثقيف لجأوا الى ما حول الحباء المقدّس ، وقد ضُرب في ساحة المعركة .

وعلى مقربة من الطائف ، مقاطعة جُرَش ، كان اهلها يعبدون الصنم يَغُوث . وهو من الآلهة اليمنية الأصل التي كثيرًا ما نُقلت من حيّ الى حيّ . وقد لخّص ولهوسن نفسه تنقلات هذا الإله استنادًا الى مرويّات ابن الكلبي[4] .

وهناك بيت شعر على شيء من الغموض ، لسوء الحظ ، من قصيدة لعبيد بن الأبرص قد يشير الى ان بني جديلة تركوا معبودهم الخاصّ في ساحة القتال . وهو :

وبدّلوا اليعبوبَ بعد إلههم صنمًا ، فبِئسوا ، يا جديلَ ، وأغذبوا[5]

وليس من شكّ عندي في اننا ، لو درسنا آثار الشعراء الجاهليين بامعان وترتيب ، لوقفنا على تلميحات عديدة من هذا النوع . وكذلك قد نصل الى

---

١) الاغاني ١٩ : ٧١–٨٠ – وكان هذا الحباء يُدعى «بيتًا» لا مضربًا عاديًا (راجع الاغاني ١٩ : ٧١ في اسفل الصفحة) ويجب ان نفهم « باليت » هنا لا *Hans* كما ترجم ولهوسن (*Reste*, 194) بل « قُبّة » طنيّة تُظلّ الحجر المؤلّه ، بل « الحجر المؤلّه » نفسه احيانًا ؛ وهو بيت إبل اي بيت الله .

٢) الاغاني ١٩ : ٨٠ ٣) الاغاني ١٩ : ٧٩–٨٠

٤) راجع *Reste*, 21 ؛ وقابل بما في : L. Delporte, *L'anathème de Jabvé et le herem prévilien en Israël*, 302, dans *Recherches de science religieuse*, t. V, 297.

٥) ديوان عبيد بن الأبرص : القصيدة ٢ ، البيت ٦ – وجاء في شرحه : « اليعبوب : صنم لعبيدهم . قال ابن سكّنة : اغذبوا : كفروا . » – راجع ايضًا ترجمة الطابع Lyall وما وضعه من تاليق

النتيجة نفسها في درسنا الرُّتَم الجاهلية في بلاد العرب . وهذا ولهوسن نفسه ينتهي الى الإقرار بوجود « بعض الاشياء المقدّسة التي تُنقل زمن الحرب »[1] . على انه إقرار غير كافٍ اذا ما انتبهنا للامثلة المذكورة اعلاه . وهو ، فوق ذلك ، لا يتفق مع ما نعرف عن اثر الكهّان وتنوّع اعمالهم وصلاحياتهم ، كما سنُبين فيما بعد .

وكأنّ ولهوسن ورجال مذهبه أغمضوا عيونهم حين مرّوا بهذه الآثار من « بقايا الشرك العربي » القديم . والله أعلم بما كانت تحتله في هذه « البقايا » مظاهرُ « الدوار » ، و« الطواف » ، و« المسعى »[2] و« الإفاضة » . ولقد كان في غنى هذه المترادفات[3] منبّهٌ لهم لو شاؤوا ان ينتبهوا . ومن الحقّ اننا لا نعرف ديانةً مثّلت فيها الطوافات الطقسيّة دورًا يشابه اهميةً واختصاصاً هذا الدور الذي مثّلته في الديانة الجاهلية . ولم يكن الحجّ الّا طوافاً طويلًا في موكب عام تتخطّفه سلسلة من المحطّات . وقد هجي القرشيّون بانهم لا يحسنون الّا السير في هذه المواكب ، فقيل :

فأمّا القتال ، لا قتال لديكم ؛ ولكنّ سيرًا في عراض المواكب[4]

* * *

ولنذكر ما كانوا يستعملونه من افعال للدلالة على هذه الحركات . كانوا يقولون « أطاف بـ » ودار بـ ». ومعنى هذا ، في نظرنا ، لا الطواف العادي او الدوران حول الحجر المؤلّه ، بل « الزياح » او الدورة التي كان يُحمل فيها الحجر نفسه « فيُطاف به » او « يُدار به »[5] .

ولا يخفى ان العرب الجاهليين كانوا لا يقومون بنزوة مهمّة الّا اذا اصطحبوا

---

١) *Reste*, 102, n. 2

٢) لاحظ خاصّة التعابير : « طاف بين » ، « سعى بين » . . . (صحيح مسلم ١ : ٤٨٥ ، ٤٨٦)

٣) ولنضف إليها « العُمرة » وهي طواف مكّي في شهر رجب . وقد جرّدها الإسلام من معناها الاصلي القديم ، كما سنرى .

٤) الاغاني ١ : ٣٠

٥) راجع ابن هشام : السيرة ١٤٢

معهم كاهناً يصل بينهم وبين ارادة الاله ، وسادناً يخدم هيكل هذا الإله ، وبعض العائفين والقائفين[1] من المَهَرة في معرفة الغيب وتأويل الإشارات ، واطلاع القبيلة على حركات اعدائها . وكان هؤلاء الموهوبون يفيدون المحاربين بمعلوماتهم الغيبية، ومقدرتهم السرّية قبل الرحيل ، وطول الطريق ، ولا سيما في اثناء المعركة. ولم يكن احد ليشكّ في هذه القدرة الفائقة الطبيعة.[2] حتى ان عبيد بن الأبرص ذكر ما يتعرّض له من النتائج السيّئة في الحرب مَن يحتقر استشارة هؤلاء العرّافين. ومن هذه النتائج تولّد الإيجاس وعدم الثقة في نفوس المحاربين.[3] ولم يكن من الغريب في شيء ، ولا من النادر ، ان يجمع الشخص نفسه ، في ايام الجاهلية البعيدة ، بين رتبتي الكاهن والسيّد . وكان من الطبيعي اذاً ان يرئس هذا الكاهن الجيش المحارب فيقود الغزوة حيث شاء . من هؤلاء القوّاد - السادة - الكهّان كان زهير بن جَناب الكلبي ، وزهير بن جذيمة العبسي . ولقد كان مسعود ، زوج سُبَيْعة ، قائد الثقفيين في حرب الفِجار ، من سَدَنة معبد اللات.[4] ولهذا رأيناه ، قبل ابتداء المعركة ، ينصب الخِباء - الملجأ، ذاك الخِباء الذي نعتقد انه كان يحتوي على « الرَبّة » او إلاهة مدينة الطائف.[5]

وقد ورث خلفاء الاسلام وولاتهم عن الكهنة - السادة القدماء حقّهم في الصلاة بالناس ، وترؤس الحفلات الدينية. ولهذا كان ما يقومون به من «غزية»

---

١) يذكر ابن دريد قبيلةً فيها اشهر العائفين والقائفين: الاشتقاق ٢٨٨

٢) راجع الاغاني ١٠ : ٢٨ ، وفيها صفة نادرة هي «حازره» ، «حَزَارة» في الكلام عن بني أسد. والاغاني ١٥ : ٧٣ ، وفيها ذكر كاهن يستشيره الناس قبل الغزوة . اطلب ايضاً عبيد بن الأبرص : ديوانه ، القصيدة ٢ : ٢ . . . البحتري : الحماسة ، الرقم ٨٦٢ ، وفيها اشعر اقوال العرّافين. وفي اسد الغابة ٥ : ٧ ذكر لكاهن يستشير الصنم.

٣) الاغاني ١٣ : ٤١ ، وديوان عبيد في الموضع المذكور.

٤) يُخطي ولهوسن (*Reste*, 130) اذ ينفي وجود هذه المراتب الاكليريكية ، وليس في النصوص القديمة ، ولا الحديثة ، ما يجيز له هذا النفي. بل اننا نرى الأمر على ضدّ ما ذهب اليه . وقد نقل ابن هشام (السيرة ٥٥) ما كان معروفاً من ان بني معتّب كانوا كلهم من سَدَنة اللات وحجّابها في الطائف . وبفضل هذه الميزة أرسل النبي المغيرة بن شُعْبَة ليضبط ما في بيت الالاهة المذكورة . راجع بحثنا في *Ziad*, p. 3

٥) الاغاني ١٩ : ٧٩—٨٠

او « مناشدة »[1] ثابت المفعول مضمون التأثير ، كما كان الشأن بعزائم الكهّان ومناشداتهم . ولهذا كان لهم الحقّ بصلاة «الاستسقاء» ايام الجدب . كل هذه الميزات من تُراث العهد الجاهلي . وقد ظلّ الخلفاء حريصين عليها طول ما كانوا قريبين من العهد البدوي ، متمسّكين بالتقاليد العربية . ولمّا بعدت الشقة بينهم وبين العروبة ، اخذوا يهملون هـذه الميزات شيئاً فشيئاً ، حتى تخلّص منها العبّاسيّون ، فكلّفوا القيام بهـا بعض رجال دولتهم . ومن ذاك الحين اصبح من الصعب الاطّلاع على المؤسّسات العربية القديمة من خلال المظهر الجديد الذي اتّخذه الإسلام.

ليس في بلاد العرب — بل في المناطق التي ندرسها من بلاد العرب[2] — طبقة اكليريكية خاصّة . انما يقوم مقام هذا النظام المعروف في الديانات الكتابية ، طائفةٌ من المتصلين بالآلهة على طريقة بسيطة كالعرّافين ، والزاجرين ، والقائفين ، والسَدَنة . نقول : على طريقة بسيطة ، لأنه ليس لهذه الطائفة ما يميّزها او يرفعها عن سائر الناس . فلا مسحة خاصّة ، ولا رتبة ، ولا رسامة ، ولا إعداد للوصول الى هذه الدرجة . فلا فرق في اساليب المعيشة بينهم وبين ابناء قبيلتهم . لهم ما لها وعليهم ما عليها . لا يتراجعون عن غزوة ، ولا يتأثّمون من اهراق دم . بل كان منهم مَن يقود الجيوش فيُنعت « بكثير الغارات »[3] ومنهم من يجمع الى لقب « صاحب بيت » القوم ، او « السادن » ، لقب « صاحب فتاحتهم »[4] دلالةً على بلائه في الغزوات والغارات المهمّة . ومثل هذا كثيرون تارةً يدفنون قرب المعبد او « بيت الله » ، وطوراً يدافعون على ظهر الفرس المطهَّم ، جامعين بين الكهانة والفروسية .[5] وقد يسمّي الرواة اسم الاله او الحجر المؤلّه الذي

---

١) الاغاني ١٤ : ٩٦ ؛ ١٥ : ١٥

٢) تاركين « بلاد العرب السعيدة » في الجنوب ، او اليمن ، لأنها تتّصف بتطوّر ديني خاصّ .

٣) راجع كتابنا : *Le Berceau de l'Islam*, I, 257 ؛ والاغاني ٨ : ٦٦ ، وفيه ذكر لكهنة قُتلوا في الحرب ؛ الاغاني ١٥ : ٧٥ ، ٧٦ ٤) البكري : المعجم ٣٤

٥) في ابن دريد : الاشتقاق ٢٢٦ ، ذكر كاهن-فارس . و« الفارس » من مرادفات « السيّد » في اللغة القديمة .

يخدمه هؤلاء. الفرسان - الكهنة، ولكنهم لا ينسون اسم الفرس، رفيق البطل في غزواته المشهورة. وهكذا عرفنا ان الكاهن المشهور عمرو بن الجُمَيْد الملقّب بالأَفكل[1]، كان له جواد ذائع الصيت، نادر الصفات، اسمه هَبُود فكان يُنسب اليه فيُقال: «فارس هَبُود.»[2] وقد قُتل هذا الكاهن - الفارس في احدى الغزوات[3]. وكانت هذه الميتة جديرة به بعد ان اشتهر بالبطش مدة سيادته بني ربيعة كما اشتهر بالبغي كذلك[4].

وقد يدعى الكاهن احياناً «بالحَكَم». وهي رتبة تفرض عادةً رتبة السيادة[5]، وتدعو الناس الى استشارة صاحبها ضرورةً قبل القيام باية غزوة او غارة.[6] ولا يخفى ان تأثير هؤلاء «الحكام» واختبارهم الشخصي، اذا

---

١) تقائض جرير والفرزدق (طبعة Bevan) ١٥٤، ١٥٥؛ ابن دريد: الاشتقاق ١٩٧. و«أفكل» اسم لا صفة كما ظنّ الاب جوسّن في Revue biblique, 1911, 591؛ اطلب زعير (في طبعة Ahlwardt) ٩١؛ ابن السِكّيت: تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ١٨٣؛ حسّان بن ثابت: الديوان ٦: ١٠؛ ابن سعد: الطبقات ١/١: ٤، ٣/١: ٢١١؛ ياقوت: معجم البلدان (الطبعة المصرية) ١: ٣٥٣؛ الاغاني ١٥: ٧٥، ٢١: ١٨٦؛ الجاحظ: البخلاء ٢٤٧؛ اسد الغابة ٣: ٣٦٢؛ ابن الأثير: النهاية ٤: ٢١١؛ وراجع ايضاً المعاجم كلسان العرب والتاج...

٢) كثيراً ما كان يشتهر الفارس بجواده في العصر الجاهلي. راجع ابن دريد: الكتاب المذكور ٨٥، ٨٦، ١١٦، ١٢١، ٢١٤، ٢٢٣، ٢٢١، ٢٦٢، ٢٨٦. وذلك ان الجواد حيوان ثمين عزيز لا يتمكن من اقتنائه الّا الاغنياء المُترفون: الاغاني ١٣: ٥٢، ١٤: ٦٦، ١٦: ٢٠، ٢١، ٣٠: ١٦٥، وقائل بنا في الاغاني ١٠: ١٢، ٦٧، ١١: ٤٤؛ و Berceau, I, 140؛ تقائض جرير والفرزدق ٢٤٧؛ ابن قتيبة: المعارف ١٤٠؛ العِقد ٢: ٦٣، ٦٤. ولم يكن العربي يملك عادة الّا جواداً واحداً، واذا زاد فجوادين: الاغاني ١٦: ٤٧

٣) الاغاني ١٥: ٧٥، ٧٧

٤) قال عنه ابن دريد: «كان سيّد ربيعة وكان ذا بغي» (الاشتقاق ١٩٧)

٥) البكري: المعجم ٤٣. راجع Berceau, I, 257-258, 370

٦) في ابن قتيبة: المعارف (الطبعة المصرية) ٢١، ١٠١: «حكيم العرب». وقد ترد اللفظة على صورة «حَكَم» او «حاكِم» او «حكيم» وكلّها تدلّ على اضطراب القراءات الاولى بسبب اهمال حروف المدّ (الاغاني ١٥: ٧٣). راجع ابن دريد: الاشتقاق ٤٧، في شأن الترادف بين «حاكِم» و«حَكَم»

تُرن بما كان يُنسب اليهم من انوار علوية ، افادتا مبلغ النفوذ الذي كان لهم ، والأثر البعيد الذي كان لاقوالهم واشاراتهم. واذًا فليس بغريب ان يستشيرهم القوم ، في طريق الغزو ، وان يطلبوا اليهم الدلالة على الغيب . هـذا اذا لم يلجأوا الى ساحرة او كاهنة ، او « ساحرة عجوز » ، يرجون منها معاونتهم على الأعداء . تُرسل «الأسجاع» النافذة . والأسجاع فقرات غامضة المعنى ، غريبة المبنى ، مسجعة المقاطع ، ناجمة التأثير حتى انها تقيّد حركات العدوّ عن بعد ، فتشوّش خططه ، وتفسد سلاحه[1]. وقد ظلّ اثر هذه العادات الدينية منتشرًا الى ما بعد الإسلام . فرأينا في رقعة «الجمل» امرأة تُنشد رَجزًا تدعو به على جمل علي[2] ؛ آخذةً في عملها هذا ، دون قصد ولا تعمّد ، بذاك التقليد القديم الذي عرفناه لكاهنات الجاهلية . وليس من فرق كبير بين «الرجز» و«سجع» الكاهنات الساحرات.

وكان الجاهليون يلجأون احيانًا في اطلاعهم على الغيب ، الى إجالة السهام او « الأزلام »[3]. وكان لا بدّ لهذه الاستشارة في مكة من ان تكون قرب الكعبة ، اي انها تفرض قربها من المعبود الخاصّ بالقبيلة[4]. ولهذا كان القوم ، اذا سافروا ، اهتموا بنقل « البيت » اي « بيت الله » = بيت إيل او الحجر المؤلّه[5] . ولقد كان له المركز المهمّ في التشوّف الى معرفة الغيب بواسطة الأزلام او السهام المقدّسة[6].

* * *

١) الاغاني ١٢ : ٧١ ، ٧٥ ، ١٨ : ٢١٧ ، ٢٠ : ٤٢ وفيها ذكر « كاهنة تسجع لهم ».

٢) مطهّر المقدسي (طبعة Huart) ٥ : ٢١٢ ؛ قابل بما في الاغاني ٣ : ١٨٩

٣) قابل اليعقوبي : تاريخه ١ : ٣٠٠ . وهناك ذكر لكاهنة كانت حكمًا : اليعقوبي ١ : ٢٨٧؛ ابن سعد : الطبقات ١/١ : ٤٦ ، ٢٦ – وقد تُستعمل الحصى في معرفة الغيب . ابن دريد : الكتاب المذكور : ٢٧٧ : « الكاهنة تطرق الحصى » (الاغاني ١٩ : ٩٩)

٤) ابن هشام : السيرة ١٧٠–٩٨

٥) وهناك « النُّبْية » التي تنصب للحَكَم : الاغاني ١٣ : ٥٤–٥٥

٦) راجع ولهوسن Reste, 132 ؛ الطبري ١ : ١٠٧٥ . ذكر أسرة مشهورة بالرافة : « بيت عيافة وقيافة » ؛ الاغاني ٣ : ٩٤

لسنا اول من نبّه الى عادة العرب القدماء بوضع جمل وقُبّة في صفوف المتحاربين . اما الغاية من ذلك فهي هياج حميّة القوم في الدفاع عن القُبّة حتى آخر نفس ، بل الموت في سبيل القُبّة . وهو معنى تلك اليمين التي كانوا يقسمونها بان لا يتراجعوا الّا اذا تحرّكت القُبّة . وكثيراً ما كان السيّد يحلف عنهم فيُقسم « ان لا يفرّ حتى تفرّ القُبّة . »[1] ولِمَ هذه الحماسة في الدفاع عن القُبّة ؟ لِمَ القيام بكل هذه التضحيات على طريقة احتفالية ؟ ولِمَ نرى البكريين ، يوم ذي قار ، يستميدون حميّتهم وشجاعتهم ، امام الجيوش الفارسية المنظّمة ، لمجرّد ظهور القُبّة ! ذلك اننا نشهد حفلة دينيّة تظهر رمزاً مقدّساً . فان نصب القُبّة في ساحة الحرب دليل على اهمّية المعركة ، وخطورة الحالة التي تتعلّق بها سلامة القبيلة بل كيانها نفسه . ولم تكن القُبة لتُنصب الّا في مثل هذه الخطوب ، لا في غزوة بسيطة ، او غارة عاديّة ، او ثار فردي وان تعلّق بشخص السيّد نفسه . والحال ان هذا الاحتفال المؤثّر لا ندرك كل معناه الّا اذا انتبهنا للصفة المقدّسة التي كان العرب يولونها القُبّة والجمل الذي ترفع عليه . يولونها هذه الصفة المقدّسة لأنها يحملان الحجر المؤلّه ، او الشيء الرامز الى الاله المعبود . وقد لا أُخطئ القصد اذا رأيت اشارةً الى شيء من هذه العادة في في بيت للكميت يقول :

وقد آلت قبائل لا تولّي مناةَ ظهورَها متحرّفينا[2]

ومعناه ان هذه القبائل أجمعت امرها في الحرب وأقسمت بانها لا تولّي ظهورها للصنم مناة الموجود في المعركة ، اي انها « لا تفرّ حتى تفرّ القُبّة . » ولا يخفى ان الكميت كان « خبيراً بايّام العرب »[3] ، وقد طالما انعم النظر ، هو وزملاؤه من شعراء الأمويين ، في منظومات الشعر الجاهلي . ومما يؤسف

١) الاغاني ٣٠ : ١٢٦ ؛ الطبري ١ : ١٠٢٨ ؛ *Berceau, I, 193, notes* ؛ اسد الغابة ٤ : ٣٠٦ ؛ مسلم : الصحيح ٢ : ١٢٣ . وفيه مثل هذا القسم منسوباً الى النبي تحت شجرة الحُدَيبية . — وقد يستبدل حَجَرٌ بالقبة . اطلب نصر بن مزاحم : كتاب صفّين (طبعة الند المجرية) ١١٧

٢) ابن هشام : السيرة ٥٥

٣) الاغاني ١٥ : ١١٢

له ان ابن هشام لم يورد الّا هذا البيت المفرد من قصيدة للكميت[١]. وهو لو اكثر من مثله لاستفدنا من آثار هذا الشاعر شيئاً غير «هاشمياته» الملّة المتتابعة على وتيرة واحدة.

وبعد ظهور الاسلام، في معركة الجمل، زى الجمل المقدّس نفسه وعليه القبّة. ولكن الحجر المؤلّه غير موجود طبعاً، وقد حلّت محلّه عائشة نفسها، «امّ المؤمنين»، تهيج المقاتلين من هودجها او من «قُبّتها».[٢] وما عدا هذا الابدال فان المشهد لا يختلف عمّا عهدناه في يوم ذي قار. ولا شكّ في ان بعث هذه العادة الطقسية القديمة لدليلٌ على ان مقتل الخليفة عثمان أثّر في كيان «الجماعة» الاسلامية نفسها. وليست هذه الجماعة الّا وحدة اجتماعية نظريّة عمل القرآن على احلالها محلّ الوحدة القبيليّة. وقد عمل كذلك على اقصاء المرأة عن القيام بالشعائر الدينية مع الجمهور. «فأُشير عليها اشارة لا تختلف كثيرًا عن الأمر بأن تبقى في بيتها.»[٣] ولهذا رأينا جمل عائشة، في الوقعة المشهورة، يقوم بالمحافظة عليه حَرَس من الرجال.[٤]

ولم يكن الجاهليون ليقرّوا بطيبة خاطر هذا الفصل الجازم في الاسرة البشرية. ذلك انهم، في المظاهرات النادرة في حياتهم الدينية، كانوا يخصّون المرأة بالمركز الأفضل. وقد يفوق عدد الساحرات العرّافات عدد العرّافين في ذاك العصر.[٥] وفي مكة نفسها كان مفتاح الكعبة بيد امرأة، هي بنت حُلَيل الخُزاعي، استودعته مدةً طويلة حتى تنازلت عن ملكيته لقُصَيّ.[٦] وفي زمن الفتح، كان المفتاح نفسه في حوزة ام عثمان بن طلحة. ولقد مانعت

١) ابن هشام: السيرة ٥٥: «هذا البيت في قصيدة له»

٢) المسعودي: مروج الذهب ٤: ٢٢٦-٢٢٩؛ الطبري ١: ٣٢١٦

٣) Perron, *Femmes arabes*, 319، وقابل بما في القرآن ٣٣ [الاحزاب] ٣٣.

٤) مطهّر المقدسي (طبعة Huart) ٥: ٢١٣

٥) راجع Perron, *op. cit.*, 166. وهو ما يشير به مطالع «السيرة»، ولا سيما سيرة ابن هشام ١٣٢، ٧١٧؛ الاغاني ٣: ١٨٩، ١٣: ١١٠، ٢١: ٢٧٥؛ ابن سعد: الطبقات ١: ٤١، ١١٠، ١٢٦

٦) ابن دريد: الكتاب المذكور ٢٧٢؛ الازرقي ٦٢

كثيرًا في اغارته للنبي.[1] وهناك حوادث عديدة نرى فيها النساء لا يتأخرن عن مرافقة الرجال حتى الى الحرب. هذا الفند الزمّاني، البطل المشهور، يدخل حرب بكر وتغلب، والى جانبيه ابنتاه، «شيطانتان من شياطين الانس... حتى اذا احتدمت المعركة، وتردّد النصر، تقدّمت احداهما، فخلعت ثيابها ورمتها وسط المعمعة...»[2] فتقتدي بها اختها وتتقدم متجرّدة بين الصفوف، صائحة بهذه المقاطع التي استعادتها هند ام معاوية في ظرف آخر:[3]

ان تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق
او تدبروا نفارق فراق غير وامق[4]

وفي هذه الحرب نفسها، حرب بكر وتغلب، قام احد البكريين، عوف ابن مالك، فرفع ابنته على جمل له وسيّره وسط مضيق، هوتنيّة قضّة. حتى اذا توسّطها ضرب عرقوبي الجمل. ثم نادى بعد ان اقسم «بجلوفه»: «لا يمرّ بي رجل من بكر بن وائل — اي رجل فارّ — الّا ضربته بسيفي هذا»[5].

وان مشهد الاستعداد، قبل معركة ذي قار، لأوفر تأثيرًا. كان العرب متجمّعين ينتظرون ان يكمل عدد سادتهم، وهم يتباحثون بشأن مقاومة الفرس. حتى وصل سيّدهم حنظلة بن ثعلبة. وقد تمرّ مجابهة الاعداء. فأمر «بالقبة» فضُربت. وكان يتبعها عدد وافر من النساء. ثم قام حنظلة نفسه الى جمل امرأته فقطع وَضينه — والوضين بطان الناقة، في شرح صاحب الاغاني، اي حزامها. ثم تتبع الظعن بقطع وضنهن[1]. وذلك كي لا يدع سبيلًا لهرب النساء، فيجتمعن كلهن حول القبة.

وبعد هذه التفاصيل الدقيقة عن حرب بكر وتغلب، وعن حرب ذي قار،

---

١) مسلم: الصحيح ٢ : ٥٠٩

٢) Perron, *op. cit.*, 50

٣) وفي هذا دليل على ان هند كانت تعيد فعلة نسية او معروفة على هذه الصفة بفضل التقليد، وانظر التفاصيل في الاغاني ١١ : ١٢٦

٤) الاغاني ٢٠ : ١٤٤

٥) الاغاني ٢٠ : ١٢٦ و١٢٧

يُصبح من السهل ان نحزر دور النساء في المعارك . وقد عرض لشرحه بيرون فقال[1] : « وكيف نحكم اليوم ، بتأثير آرائنا واخلاقنا الاوربية ، على ابنتي الفارس البطل الزمّاني ؟ لقد رأينا ضبّاطاً يرمون بقبعاتهم امام العدو[2] . . . ولكن كم رأينا من فتيات يبتدهن القوم بقطع حماسي ، ويرمين بمظاهر جمالهنّ وفتنتهنّ ، ليهجنّ المحاربين ! » .

حماسةٌ وطنيّة ، او هَوَس ديني ! ليكن ما يشاء بيرون على شرط ان يصرف وهمه عن الرغبة في اثارة الشهوات المنحطّة . فان حركة الكاهنات البدويّات تتّجه لا الى حواسّ رجال قومهنّ بل الى عاطفتهم الدينية القبلية . وليس لآراء الاوربيين وتقاليدهم من دخل بهذا الشأن . ولا يخفى ان مؤلّف « النساء العربيّات » يتوقّف في ابحاثه خاصّة لدى النواحي التصويريّة من حياة البدو . ولهذا كانت اكثر مقابلاته وتشبيهاته لا تستند الى برهان وثيق . بيد ان وهمه الحاضر ناتج مما في رواية صاحب الاغاني من انتقال فجائي ، وتفصيل دقيق يحول بينه وبين النظرة الشاملة في التأليف الموحّد . وهذا من ميزات الاصبهاني في اكثر رواياته التي انما يسرد فيها كل ما بلغه من دقائق تفصيلية حريصاً على امانة النقل اكثر من حرصه على حسن التأليف الفنّي . وهو لو شاء ان يؤلّف وحدةً متناسقة الاقسام لأخبرنا — كما رأينا في احدى رواياته معركة ذي قار[3] — أن « القبة » المشتملة على « البيت » نُصبت الى جنب الجمل المقدّس الذي كان يحملها ؛ ولتغيّر عند ذلك دور « الشيطانتين » الزمّانيتين ، والنساء البكريّات ، وابنة عوف بن مالك ،

---

(١) Perron, *op. cit.*, 50

(٢) قابل بما في ابن دريد : الكتاب المذكور ٢٦٢ ، عن احد المقاتلين انه : « ركز الرمح في قدمه وقال : لترون أفرّ . . . » وفي طبقات ابن سعد ٣ : ١١٧ ؛ واسد الغابة ٤ : ٢٠٦ ان احد الانصاريين رمى حجرًا بين الجيشين وصاح : « لا افرّ حتى يفرّ هذا الحجر » . — ولنُشر الى ان المرأة التي تُنذر بالشرّ تتجرّد احياناً من ثيابها ، الاغاني ١٥ : ٩٦ ؛ قابل بما في الاغاني ١٤ : ١٢٨ ، وهو معنى القول : « النذير العريان » ؛ راجع ابن هشام : السيرة ٤٣٠ ؛ الطبري ٢ : ٧١٨ ؛ ابن الأثير : النهاية ٣ : ٩٠

(٣) وفيما ذكر للقبة ، الاغاني ٢٠ : ١٣٦ ؛ قابل بما في الطبري ١ : ١٠٣٨ ، والشاعر المذكور في الاغاني ٢٠ : ١٤٠ ؛ واني اقترح ان يُقرأ في البيت الرابع « محارم » بدل « محارب »

ملتحفاً بادوار الكاهنات ، او المبصرات ، او حارسات « البيوت » . ومنهنّ « زرقاء اليمامة » التي كانت تُبصر على المسافات البعيدة . ومنهنّ تلك المرأة في مكة التي تنبأت بمستقبل محمد المجيد[1] . ومنهنّ سجاح المتنبئة ، كانت ساحرةً وزوجة كاهن[2] . وبعد الهجرة بالسنين الطويلة ، ظلّ بعض الصحابة يذكرون من جدّاتهم من كنّ « ربّات بيت في الجاهلية »[3] . وقد تكون البدويّات من زمان ومن بكر من هؤلاء الربّات ، فلا عجب ان يتحمّسن في حراسة القُبة حتى الموس ؛ ولا عجب ان يقودهنّ قومهم الى ساحة الحرب ، وقد اعتادوا نقل الحجر المؤلّه الى هذه الساحة كما قدّمنا ، كما اعتادوا ان يحملوا ايضاً الكاهنات « النفّاثات في العقد »[4] ، ولهنّ الباع الطولى في ارسال « الأسجاع » اي تلك الفقرات الموسيقية الغامضة المعنى ، الحاملة مقدرة عجيبة على سحر الاعداء فوقف حركاتهم وافساد اسلحتهم[5] . ومن العبث ان يفتّش الباحث عن معنى صحيح لهذه التعابير ، فانه يضيع في متاهات نبراتها الموسيقية ، وايقاعها السريع المقطّع ، وقوافيها الجناسية المتوافقة في سيل النَفَس الصوتي ليس غير . بيد ان هذه « الاسجاع » لم توضع ليدرك معناها الانس ، وكفى بالجنّ لها مدركين اذ يعرفون لغتهم ،

---

١) ابن هشام : السيرة ٩٨–٩٩ ؛ الاغاني ١١ : ١٦١ ؛ مسلم : الصحيح ٢ : ٩٣ ، وفيه ذكر امرأة رأت شيطان النبي .

٢) مطهّر المقدسي : الكتاب المذكور ٥ : ١٦٤

٣) ابو داود : السُنَن ١ : ١٩٥ ؛ اسد الغابة ٥ : ١٧

٤) القرآن ١١٣ : [الفلق] ٤

٥) ولهذا ترى البدو يتأثرون دائماً ، حتى الخوف ، من السجع . وقد لجأ مختار الى هذه الطريقة بعد « عهد السجع » بكثير . – اطلب في ذكر الكاهنات المسجّعات ، والساحرات الاغاني ٢٠ : ٢٤ ؛ ١٠ : ٧١ ، ٧٥ ؛ ١٢ : ٥١ ؛ ابن حنبل : المسند ٣ : ٥١ وفيه التعبير : « سجع اساجيع » اي لفظ الاقوال السرّية الغامضة وهي لغة الكهّان . ولغة الجنّ ، ولغة الحيوانات المتكلمة بامجوبة . . . الاغاني ١٩ : ٩٦ ؛ ابن هشام : السيرة ١٠–١١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ؛ اسد الغابة ٢ : ١٢٦ ؛ ابن حنبل : الكتاب المذكور ٣ : ٤٢٠ . ويُستعمل السجع في الرقى والتعازيم : مسلم : الصحيح ٢ : ١٠٨ ، ١٨٢ . وقد تُجمت عدة امثلة للسجع في *Zeitschr. fiir Assyriol.*, XXVI, 273... وقد يرد السجع في الاحلام الغريبة : ابن هشام : السيرة ٩١ ، ٩٣ ؛ وفي دعاء الشهيد خُبيب : الكتاب المذكور ٦٤١

فيسرعون مسرورين في تلبية تلك الدعوات المُلحّة المتتابعة.

وهذا النبي نفسه يعظ الناس ممتطياً ظهر جمل[١]. وكان الكاهنات البدويات قد تقدّمنه في استعمال هذا المنبر. وقد اجمعت كتب «الصحيح» على ذكر ما كان يقوم به نساء دَوْس من اختلاجات، وانعواجات، في طوافهنّ الاحتفالي حول الصنم ذي الخَلَصَة[٢]. ولم يكنّ في هذه المظاهر ليرمين في شيء الى هياج الحواسّ الشهوانية في ابناء قومهنّ. كما ان عمل الزمانيّتين ليس فيه ما يرمي الى مثل هذا الهياج. انما هو من نوع كشف البدوية الحُرّة شعرها لتدفع الرجال الى حمايتها والدفاع عنها. بل هو عمل فاطمة بنت النبي، اذ القت بقناعها عندما اراد عمر انتهاك حرمة منزلها[٣]. وكذلك فعلت نائلة، امرأة عثمان، اذ «كشفت عن قناعها ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك ردعاً لهم»[٤]. ولا يخفى ان اظهار شعر المرأة لمن الحوادث الخطيرة. حتى ان الصلاة تفسد اذا ما حلّت المرأة شعرها[٥]. وكان الملك جبريل يختفي اذا ما القت خديجة حجابها[٦]. وذلك «ان لهذا الشعر حرمة مقدّسة خاصة. وغاية الحجاب ان يغطي شعر المرأة قبل ان يغطي الوجه. ويعتبر النساء ان نزع الحجاب، واظهار ضفائر الشعر، لا يكاد يبدو اقلّ غرابة من ظهورهنّ عاريات»[٧]. واذًا فليس من شكّ في ان عمل الزمانيتين، على جرأته، كان دافعاً الى هياج الحماسة في قلوب المحاربين، فالى حشدهم حول «البيت» يحاربون وقد دبّت فيهم شجاعة اليأس او الاستقتال[٨].

---

١) مسلم: الصحيح، ٢: ٢٨، ٣٦

٢) مسلم: الكتاب المذكور ٢: ٥٠٤

٣) اطلب كتابنا في *Fāṭima*, 110؛ نقائض جرير والفرزدق ٨٦؛ الاغاني ١٥: ١٢٩

٤) الجاحظ: رسالة في النابتة ١١٦ (Congrès oriental, 11e)؛ الاغاني ١١: ١١١؛ البحتري: الحماسة رقم ٧٢٨

٥) مالك: الاحاديث المدوّنة ١: ٩٤

٦) ابن هشام: السيرة ١٥٤؛ اسد الغابة ٥: ٤٢٧

٧) Wellhausen, *Reste*, 199 – راجع، في «حرمة» شعر المرأة، الاغاني ١٥: ٧١. اما الجارية فهي حرّة في اظهار شعرها: ابن دريد: الكتاب المذكور ١٢٦

٨) وقد تكون النابة من ذلك دفع الاعداء، كما فعلت فاطمة. وذكر عن نساء قريش

وقبل الهجرة ببضع سنوات ، في اثناء حرب بين بني دوس وبني الحرث ، قدم احد السادة ببناته الأربع الى ساحة القتال، « فانزلهنّ وبنين بيتاً »[1] . وهو القبّة المعروفة التي تُظلّ « البيت » بمعنى الحجر المؤلّه. وكان البنات من حارساته ، او سادناته شأن الثستال في رومة القديمة في القيام على حراسة النار المقدّسة . ودورهنّ في الحرب ما عرفناه في وقائع البكريين والتغلبيين ومعارك ذي قار ، وغيرها.

وقد تجاوزت هذه العادة زمن الهجرة ، وقرون الاسلام المتتابعة ، فظلّت في بلاد العرب حتى اليوم . ولا يزال البدو يقودون الى ساحة الحرب جملاً مكرّماً يرفعون عليه فتاةً هي انبل فتاة في القبيلة. ويكون منتهى العار عندهم ان تقع هذه الفتاة في ايدي الأعداء[2].

هذا كلّ ما حفظه الاسلام من تلك الذكرى الدينية الجاهلية !

يوم الفتح ، أضن خرجن من مكة مكشوفات الرؤوس ، فلاقين الخيل : البلاذري : الانساب (مخطوطة باريس) ٣٢٦ وجه ؛ ابن هشام : السيرة ٨٣٠

١) الاغاني ١٢ : ٥٥

٢) راجع Jaussen, *Arabes de Moab* ؛ وامين الريحاني : تاريخ نجد الحديث ، ١٩٨ — ويظهر ان ابن سعود أبطل العادة .